سمات عمارة البيوت التقليدية بواحة غدامس الليبية في العصر العثماني:

بيت دا باباني أنموذجًا

أحمد محمود أمين *

ملخص. غدامس هي واحة ليبية عند ملتقى الحدود السياسية الليبية الغربية مع حدود تونس والجزائر. تعرف حاليا باسم مدينة غدامس، وتعتبر المدينة الوحيدة المسقوفة في صحارى العالم. وتدرس الورقة بيوت واحة غدامس التقليدية فى ضوء زيارة ميدانية لغدامس (2014م) مع التطبيق على نموذج بيت دا باباني (أو بيت الحاج عبد السلام شميلة[1]، والذي يؤرخ إلي ما قبل القرن 12هـ/18م).

البيوت الغدامسية فقيرة المظهر الخارجى، جدرانها مرتفعة قليلة الفتحات. تبنى الأساسات، والجدران حتى ارتفاع متر تقريباً بالحجر الرملى، وتبنى الجدران بالطوب اللبن، وتستخدم أخشاب النخيل ومشتقاته للأسقف والأبواب والخزانات والأعمال الخشبية الأخرى.

يتكون البيت الغدامسي من ثلاثة طبقات أومستويات رأسية مشتملة على مستوى أرضي، يعلوها طبقة تمثل وحدات البيت الرئيسية، يعلوها السطح مشتملاً بدوره على وحدات معمارية أهمها المطبخ. يشتمل البيت على وحدة الاستقبال والمعيشة، حجرات للنوم، المخازن، حجرات للتموين، الكبة، المرحاض، المطبخ، الكمار، والممرات والسلالم للحركة.

أهم خصوصيات عمارة البيت التقليدى بغدامس اختفاء الفناء الداخلى السماوى، واستخدام السطح، والحركة عبر أسطح المنازل، بالإضافة إلى شكل ومضمون الزخارف.

تناقش الورقة البحثية كذلك تأثير المضمون الدينى على عمارة البيت الغدامسي (فقه العمارة)، وتعرض الورقة البحثية لمقارنة البيت التقليدى بصفة عامة والغدامسي بصفة خاصة بالعمارة التقليدية في الواحات المشابهة لواحة غدامس حيث الظروف البيئية والمناخية والإجتماعية للوقوف على العوامل المؤثرة على التخطيط ، وأوجه الشبه والاختلاف فيما بينها.

* **أستاذ مساعد بقسم الآثار الإسلامية ـ كلية الآثار– جامعة الفيوم (مصر).**

[1] - أتوجه بجزيل الشكر إلى الحاج عبد السلام شميلة صاحب البيت، والذي سمح لى بدراسة وتوثيق وتسجيل المنزل، وقام بشرح تفاصيل كثيرة بالمنزل، كما أشكر السيد / شكرى الوحشي لمرافقتنا فى زياراتنا الميدانية لآثار مدينة غدامس القديمة بوجه عام، ومنازلها بوجه خاص وإرشادى لبعض التفاصيل، والمادة العلمية عن منازل غدامس. كما أتقدم بخالص الشكر لزملائي بكلية الآثار والسياحة بجامعة المرقب بليبيا، وأخص منهم بالشكر الأستاذ سعيد حامد، الأستاذ محمد الخازمي والأستاذ معمر والأستاذ الصادق والأستاذ أكرم، على مساعدتهم في الزيارة الميدانية، وأعمال التوثيق والتسجيل المعمارى لهذا البيت.

مقدمة

مدينة غدامس (غدامس بغين معجمة وبدال مهملة أو ذال معجمة[2]) هي إحدى أقدم مدن واحات الصحراء الكبرى بشمال أفريقيا، وتقع في الاتجاه الشمالي الغربي من ليبيا، عند ملتقى الحدود السياسية الليبية الغربية مع حدود تونس والجزائر (شكل رقم 1). وتمثل غدامس أقصى مدن الواحات الشمالية تطرفاً نحو الغرب، وإلى الشمال قليلاً من نطاق الواحات الشمالية الممتدة في شمال الصحراء الليبية، والتي تبدأ من الجغبوب شرقاً من مراكز الاستقرار المتفرقة بين منطقة الساحل وباقي واحات الجنوب[3].

موقع مدينة غدامس جعلها أقرب مركز عمراني في أقصى غرب ليبيا بالصحراء الكبرى لمناطق العمران المتاخمة لساحل البحر المتوسط، وهي تقع على المدخل الأقصر طريقاً بين إقليم البحر المتوسط وإقليم الصحراء وجنوبه، ذات الاختلاف البيئي طبيعيًا واقتصاديًا وحضاريًا ؛ مما أكسب غدامس أهمية خاصة منذ العصور القديمة[4].

وتمثل غدامس واحة صغيرة مستديرة الشكل تقريباً (لوحة رقم 1)، تلتف حول العين مع الامتداد قليلاً نحو الشمال الشرقي، وقد حدّت ظروف الصحراء من اتساعها. ويذكر رولفس أن شير ميرشير **(Mercher)** قدر محيط الواحة بحوالي 6000 متر، ويتراوح قطرها بين 1200 إلى 1500م[5]، وتكسوها مزارع كبيرة كثيفة بأشجار النخيل؛ حيث أدت دوراً كبيراً في استمرار الحياة بها لقرون كثيرة، كما أنها تمثل عاملاً رئيسيا فى تشكيل عمارة غدامس.

وجدير بالذكر أن مدينة غدامس تعتبر المدينة الوحيدة المسقوفة في صحارى العالم، ومن ثم فهى تتسم بمناخ خاص مختلف عما هو سائد في البيئة المحيطة بغدامس؛ حيث يبلغ الفرق بين درجات الحرارة داخل المباني الصغيرة بالمدينة نحو عشر درجات مئوية خلال السنة، بينما تصل درجة الحرارة خارج المباني إلى حوالي ستين درجة مئوية[6].

---

[2] - الزاوي، ***معجم البلدان الليبية***، 24. عن تخطيط مدينة غدامس وآثارها انظر: الموبر، ***مدينة غدامس الليبية :*** ويعرض فيها للمدينة وسياقها الجغرافي والتاريخي والاقتصادي والاجتماعي والصحي، ثم يتناول تخطيط المدينة وعمائرها الحربية (الأسوار والأبواب والمداخل)، والدينية (الجوامع والمساجد ومساجد المزارع والكتاتيب والزوايا)، والمدنية، وشبكة الشوارع والأسواق والمجالس العامة والميادين، ومصادر المياه وقنوات الري، ويختتمها بفصل مقارنة بين غدامس وواحة سيوة بمصر، وهى ترسم صورة عامة فى المجمل، وتفتح الباب لدراسات تحليلية أكثر تعمقًا.

[3] - ضوء، ***غدامس واقع وتواصل***، 17 ؛ الهرامة، "غدامس إحدى حلقات الوصل ..."، 61 ؛ Despois, "Ghadames", 991-992.

[4] - تشانجي، ***الصراع التركي الفرنسي في الصحراء الكبرى***، 56 ؛ البابور، ***غدامس التحضر***، 19.

[5] - رولفس، ***رحلة عبر أفريقيا***، 189 ؛ شرف، ***جغرافيا ليبيا***، 243.

[6] - ضوء، ***غدامس واقع وتواصل***، 38- 40.

البيوت والتخطيط العام لمدينة غدامس القديمة

تتجمع البيوت (أو دور السكنى) في مدينة غدامس مكونة محلات سكنية (شكل رقم 2، لوحة رقم 2) تتمحور حول عين الفرس، والتي تمثل مصدر المياه الوحيد، كما يتوسط مدينة غدامس كذلك غابة نخيل تمثل الظهير الأخضر للمدينة. وفرت غابة النخيل هذه المواد الخام الرئيسية للبناء والمتمثلة فى مشتقات النخيل والطين اللازم للطوب اللبن. تشمل المدينة القديمة – فضلاً عن البيوت كمكون أساسي في تشكيل عمارتها– أسوار المدينة وأبوابها ومداخلها، وشبكة الطرق، والساحات، والمجالس العامة، والمنشآت الدينية.

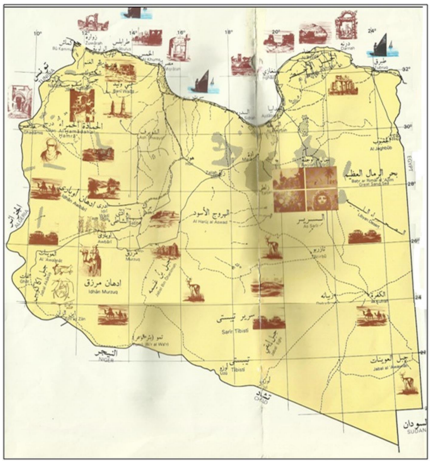

شكل 1 ، موقع مدينة غدامس بليبيا، (عن: نور الدين الثنى: المؤثرات الدينية، ص 120)

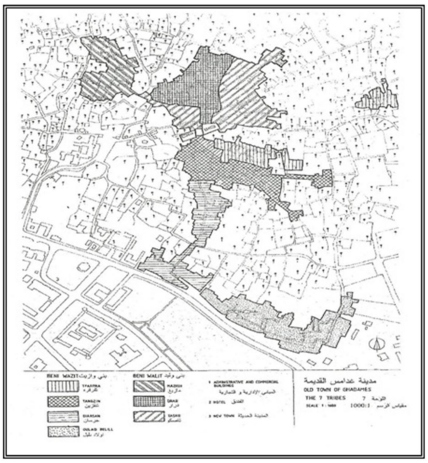

شكل 2 ، المتجاورات المعمارية (الأحياء) بغدامس، (عن: مكتب الأمم المتحدة غدامس)

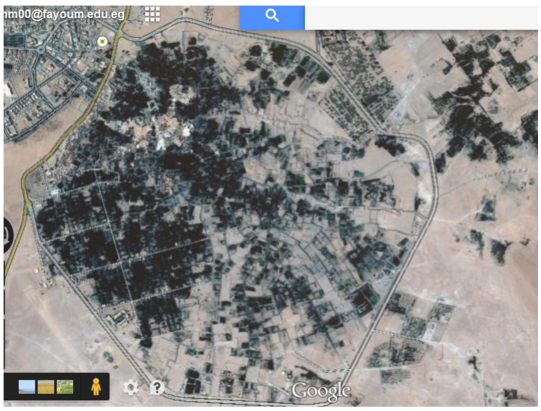

لوحة 1 ، صورة جوية توضح واحة غدامس، عن: Google Earth

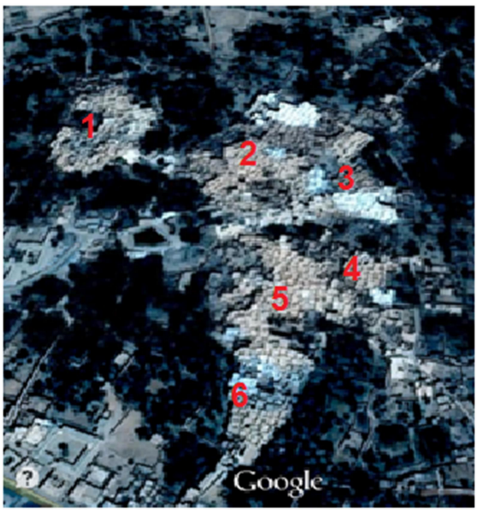

لوحة 2 ، صورة جوية توضح الأحياء السكنية بواحة غدامس، عن: Google Earth
الأحياء الستة لغدامس القديمة على الترتيب:1– مازيغ 2– درار 3– تصكو 4– تفرفرة 5– تتقزين 6– جرسان

تضم مدينة غدامس القديمة حوالي ألف وأربعمائة منزل تمثل ثروة معمارية متفردة من المنازل الأثرية والتاريخية[7]. ونتيجة غارة جوية أمريكية إبان الحرب العالمية الثانية وتحديداً في 11 يناير 1943م تهدم تماما سبعون منزلاً، وتصدع مئتا منزل من منازل مدينة غدامس القديمة[8]. مع بدايات سبعينيات القرن العشرين بدأ خروج سكان مدينة غدامس القديمة من المدينة تاركين بيوتهم على حالتها، وبنوا بيوتاً جديدة خارج المدينة القديمة. واستمر خروج العائلات من المدينة القديمة حتى خرج آخر سكانها سنة 1982م. مما لا شك فيه أن خروج الأهالى من المدينة القديمة بهذه الكيفية ساعد في الحفاظ عليها وعلى طابعها التقليدي دون أن تطاله انعكاسات الحداثة خاصة فى العقود الخمسة الأخيرة. وهجر السكان للمدينة جعل منها مدينة أثرية كاملة خالية تصلح للزيارة والاستثمار السياحي بصورة غير مسبوقة وهي تمثل نموذجاً فريداً في هذا السياق.

جميع أصحاب البيوت بالمدينة القديمة يتوارثونها ويتعاهدونها بالزيارة والحفظ وهي بمثابة متنزه لهم عند الحاجة. وكل بيت بالمدينة معلوم ملكيته وأصحابه لأهل غدامس حتى الوقت الحالي. كما أن كل شارع، أو مصطبة، أو ميدان، أو جدار مشترك، أو أي مساحة ضمن المدينة لها اسم محدد يعرفه سكان غدامس، بحيث أنه يستطيع توصيف أى جزء أو مساحة بالمدينة، ويتم الوصول إليه عن طريق هذا التوصيف بكل سهولة فيما بين أهل المدينة[9]. ومساحات الجلوس على المصاطب بالميادين والمجالس والشوارع معلومة الحقوق والاستخدام الوظيفي[10] لأهالي غدامس وفق معايير الفئات العمرية فهناك مجالس لكبار السن، ثم للرجال، وللشباب ثم للصغار، وتبدأ فئة الشيوخ من جوار جامع الحي ثم يليها تباعاً مجالس وأماكن الفئات العمرية الأقل.

ومن أبرز منازل غدامس منْزل العلاّمة أبي جابر عبد الله بسكوري ومنْزل العلاّمة عبد الله أبي بكر، ومنْزل المهدي هيبة، ومنْزل العلامة محمد بن يونس، ومنْزل العلاّمة عبد الرحمن البوصيري، ومنْزل عبد الحميد الوحشي، ومنْزل التاجر أحمد الثني، ومنْزل المؤرخ بشير قاسم يوشع، ومنزل دا باباني.

تؤرخ معظم مساكن المدينة القديمة بغدامس بأحياءها الستة (مازيغ، درار، تصكو، تفرفرة، تنقزين، جرسان) (لوحة رقم 2) للعصر العثماني، وهناك نماذج تعود لما قبل العصر العثماني[11]. والمساكن متماثلة في التخطيط، والوحدات، والعناصر، والاستخدام الوظيفي للوحدات، ولا تختلف فيما بينها إلا

---

[7] - يوشع، ***غدامس ملامح وصور***، 94.

[8] - في هذه الغارة قتل 40 وجرح 12 من أهالي غدامس، وتهدم تماما أقدم جوامع غدامس الجامع العتيق والذي أنشئ عام 50هـ، وتصدع جامع يونس ثاني أقدم جوامع واحة غدامس، مما جعل الأهالي يهدمونه ويعيدوا بنائه. جدير بالذكر أنه هذه الغارة الجوية الأمريكية لم تصب أي هدف عسكري، ولم يتخلف عنها أي قتلى أو جرحى من الحامية الايطالية أو المجندين، للمزيد راجع: ضوى، *"القصف الجوي الأمريكي على غدامس ..."*، 10-11.

[9] - عز الدين، ***تاريخ غدامس القديم والحديث***، 15 ؛ الموبر، **مدينة غدامس الليبية**، 191.

[10] - الموبر، ***مدينة غدامس الليبية***، 185-187.

[11] - خيرى، "غدامس جوهرة الصحراء"،114.

في المساحة ومستوى الزخارف بتباين إمكانات أصحابها. لازالت المساكن الغدامسية باقية بطابعها المعمارى القديم؛ حيث لم تتأثر بالتغيرات والتطورات في أساليب الإنشاء والبناء إلا في حالات نادرة. ولذلك فهي تمثل بجدارة أنموذجاً استثنائياً لمدينة كاملة محافظة على عمارتها التقليدية والبيئية، المستمر لمئات السنين ولايزال قائماً.

البيوت الغدامسية من الخارج أقرب إلى مظهر العمارة الدفاعية حيث الجدران العالية (متوسط ارتفاع 10-12متر)[12]، والتي ننخللها فتحات مرتفعة صغيرة بغرض التهوية والإضاءة. واجهات البيوت باللون الأشهب، وتطلى نهايات الجدران بطبقة بيضاء من الجير، وتزين بأشكال مثلثات. تخطيط البيوت متضام ومساحة المستوى العلوى عادة تكون أكبر من مساحة المستوى الأرضى[13]؛ حيث تغطى البروزات العلوية الشوارع والأزقة، وهى الظاهرة المعمارية المعروفة في العمارة الإسلامية بالساباطات. المنازل ذاتها متداخلة التخطيط حيث يمكن أن نجد جزء من المنزل فى الأدوار العليا داخل فى مساحة منزل مجاور فى الطابق الأرضى؛ وهذا نتيجة لعمليات التوسعة والتقسيم والتوريث... وعادة المنازل المتجاورة لها جدران مشتركة.

المدينة بالكامل مسقوفة بصورة فريدة استثنائية (لوحة رقم 3)، ويتخلل الشوارع على مسافات منتظمة، وفق حسابات معلومة من حقوق الأرض والبناء فيما بين السكان، مساحات مكشوفة سماوية مربعة المسقط تقريباً (متوسط طول ضلع المربع 1.5 متر)، وهي مساحات مشتركة فيما بين سكان كل شارع ووظيفتها الإضاءة والتهوية (لوحة 4).

الشوارع مغطاة بأسقف محمولة على عوارض من جذوع النخل والتى تقطع إلى ما يعرف السنور[14] (أو الصنور) بحيث توضع السنانير على رأسها (حافتها) ، وتتميز الأماكن الانشائية الحاملة بوجود زوج من السنانير المتجاورة بدلاً من سنور مفرد فى الأماكن غير الحاملة لبناء أعلاه (لوحة 3-4).

المنزل الغدامسي: منزل دا باباني ' الحاج عبد السلام شميلة ' أنموذجًا

يمثل منزل دا باباني نموذج لأحد المنازل متوسطة المساحة بمساكن مدينة غدامس القديمة، ولذا فهو يمثل نسخة متكررة لأغلب منازل المدينة، وتنحصر الاختلافات بينها في المساحة، والزخارف وبعض

[12] - أقل متوسط لارتفاع المنازل الغدامسية تم ذكره هو عشرة أمتار، راجع: خيرى، "غدامس جوهرة الصحراء"، 115 ؛ Daza, ***Understanding The Traditional Built***, 106

[13] - وهذا جعل شوارع المدينة القديمة كلها مسقوفة، راجع: Daza, ***Understanding The Traditional Built***, 106.

[14] - يتوارث الحرفيون وأهالى غدامس طرق وتقنيات البناء، ومنها كيفية معالجة السنانير (العروق أو الأفلاق) من جذوع شجر النخيل لتقاوم عوامل الطبيعة وعوامل التلف. فيذكر أهل الصنعة أنهم يقطعون النخلة إلى نصفيين طوليين، ثم يعالجون خشب النخيل بمعجون من التمر كمادة سكرية قوية لسحب المادة السكرية الموجودة بخشب النخيل، ثم بعد ذلك كمرحلة ثانية يعالجونه بمحلول ملحى كمادة عازلة؛ وتستغرق عملية المعالجة نحو عام تقريباً لضمان قوة خشب النخيل، ولذا فهو يصمد لمئات السنين دونما أن يتعرض للتسوس أو عوامل التلف الأخرى، ولا سيما كان أهالى غدامس يتعاهدونه بالرعاية والصيانة عند الحاجة. انظر: الثني، **المؤثرات الدينية**، 36-37 ؛ المربر، ***مدينة غدامس***، 70-71.

التفاصيل. ونادراً ما توجد اختلافات جوهرية فى تخطيط بيوت غدامس، لذا ستتناول الورقة البحثية – عند الحاجة – لنماذج ببيوت أخرى توضح النماذج المختلفة. ومن الحالات القليلة التى تمثل اختلاف فى تخطيط البيوت الغدامسية وجود ساقية[15] بالطابق الأرضي للبيت، كما في منْزل عبدالحميد الوحشى (منتصف القرن 12هـ/ القرن 18م) بحى (محلة) وليد، بشارع تصكو.

لوحة 3، أحد شوارع مدينة غدامس القديمة المسقوفة

لوحة 4، شارع تنقزين، زنقة توحبالة الذي يفتح عليه باب منزل دا باباني (أول باب يسار الصورة)

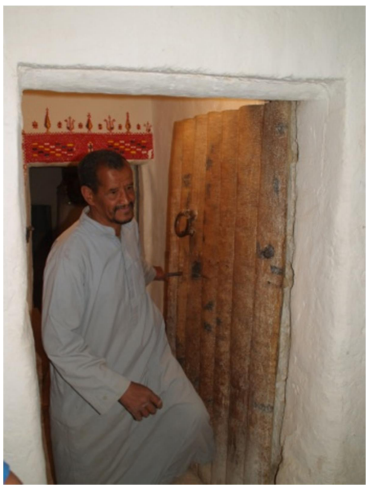

لوحة 5، باب بيت دا باباني، صاحب البيت وهو يقوم بفتح الباب

لوحة 6، باب بيت دا باباني من الداخل.

لوحة 7، مطرقة باب بيت دا باباني

لوحة 8، مطرقة باب أحد بيوت غدامس القديمة

[15] - المقصود بالساقية هنا غرفة تستخدم لغسيل الملابس ومتعلقات المنْزل، وللوضوء، فيما عدا الشرب، وليس الساقية بمفهومها فى العمارة الإسلامية الملحقة بالبيوت والقصور المملوكية والعثمانية بالقاهرة على سبيل المثال، وهو مصطلح مستخدم فى توصيف العمارة الغدامسية.

لوحة 9، مفتاح باب بيت دا باباني (أعلى)، وتفصيل (أسفل)

لوحة 10، ممر الطابق الأرضي، بيت دا باباني

لوحة 11، سقف ممر الطابق الأرضى، بيت دا بابانى

لوحة 12، غرفة التخزين بالطابق الأرضى، بيت دا باباني

لوحة 13، سقف غرفة التخزين بالطابق الأرضي، بيت دا باباني

لوحة 14، الدرج الرابط بين الطابقين الأرضى والأول، بيت دا باباني

الموقع والوصف العام للبيت

يقع بيت دا باباني بواحة غدامس الليبية، بحى (محلة) وزيت، بشارع تنقزين، زنقة توحبالة (شكل رقم 3)، وله باب يفتح على هذا الشارع (لوحة رقم 4)، ويعرف البيت باسم دا باباني. يعتقد صاحب البيت الحالي (الحاج عبد السلام شميلة) أن تاريخ عمارة البيت يرجع لنحو ألف عام، لكن نرجح تأريخ البيت في صورته الحالية في ضوء سماته المعمارية والشواهد الأثرية إلى بدايات العصر العثماني –شأن غالبية البيوت الغدامسية– وبشكل أكثر تحديدا إلي ما قبل القرن 12هـ/18م. البيت يتكون من طابق أرضى ومستويين (طبقتين) علويين؛ لكن الفصل الأفقي والرأسي غير منتظم، أى

أن الامتداد الأفقي للطوابق غير متطابق مع المستويات الثلاثة حيث يوجد زيادات وارتدادات بالمستويين العلويين مما يعكس تباين ارتفاع الغرف والأماكن المختلفة داخل البيت (شكل رقم 6).

الطابق الأرضي. يتوصل إلى داخل البيت عبر بابه الرئيسى الذي يفتح على شارع تصكو (شكل رقم 3، لوحة رقم 4–5)، وهذا الباب مستطيل الشكل ويغلق عليه بمصراع خشبي واحد، من جذوع النخيل مكون من سبع صنانير (لوحة رقم 5،6)، مثبتة ومربوطة مع بعضها من الخلف بعوارض خشبية أفقية (لوحة رقم 6). مثبت على الباب من الخارج مطرقة حديدية مستديرة (لوحة رقم 7)، وغالبية مطارق أبواب بيوت غدامس مزينة بزخارف هندسية بأشكال مثلثات وتهشيرات مختلفة (لوحة 8).

مفتاح الباب (لوحة رقم 9) مصنوع من مزيج من المعادن أهمها الحديد والبرونز[16]، أبعاده 27 سنتيمتر طولًا، وأقصى عرض له يبلغ حوالي 8 سنتيمتر، وسمك بدن المفتاح 2 سنتيمتر، ووزنه 701 جرام. جدير بالذكر أن التصميم العام لهذا المفتاح شاع خلال العصر العثماني في القرنين12–14هـ/18– 20م، وله طابع شعبي. مكتوب على بدن المفتاح 'عمل الحاج المختار' بخط يعرف باسم الخط الحر[17]، وجاءت حرف الخاء في كلمة 'المختار' سابقة على حرف الميم؛ وهو خطأ يرجح أن الصانع هو نفسه كاتب النص، ومثل هذا الخطأ يحدث عادة عند جهل الكاتب بالكتابة، واعتماده على نقل الحروف رسمًا. ويدعم لقب 'المختار' تأريخ المفتاح للعقود الأولى للقرن العشرين؛ حيث انتشر على نطاق واسع خاصة بعد مقاومة عمر المختار للإيطاليين، وهو ما يتفق كذلك على التحليل الفني لمادة صنع المفتاح ودرجة نقاءه والتي تشير إلى التأثير الإيطالي[18].

ويفيدنا هذا المفتاح في ثلاث معلومات مهمة كالتالي:

1. أن تاريخ المفتاح ليس بالضرورة أن يكون هو نفسه تاريخ البيت؛ حيث أن المفتاح قابل للتغيير أو التجديد أو إعادة الصنع؛ وذلك إما لتغيير المالك، أو للرغبة في التغيير لأسباب متنوعة منها فقدان المفتاح القديم، أو كسره ... ومن ثم فإن تاريخ البيت سابق على تاريخ المفتاح.

2. الحاج المختار أحد صناع المفاتيح (الأقفال) بمدينة غدامس في العصر العثماني، وتحديدا في النصف الأول من القرن 20م.

[16] - وفقا للزميل د. صالح محمد المتخصص في ترميم المعادن وصيانتها – ووفقا لتحليل علمي لمفاتيح مشابهة من نفس المدينة ولها نفس الخواص – فإن النقاء الذي يتسم به مادة صنع هذا المفتاح من الأمور النادرة والمثيرة للانتباه ، وهو يتكون من مزيج من العناصر أهمها الحديد والبرونز والاستانلس وغيرها، ويرجح د. صالح أن مواصفات النقاء والجودة تشير بشكل واضح للتأثير الإيطالي على صناعة هذه المفاتيح؛ وهو ما يشير بدوره لتأريخ المفتاح بالعقود الأولى من القرن 20م معاصرا للوجود الإيطالي بليبيا. وأنتهز الفرصة هنا لأشكر زميلي د. صالح على هذه المعلومات والملاحظات المهمة.

[17]- عن نماذج للخط الحر انظر: الجبوري، **موسوعة الخط العربي**، 133-158 ؛ طنطاوي، "التحف الفنية الإسلامية المشكلة على هيئة الكف ..."، 75 حاشية 22. وأشكر الزميل د. حسام للفت انتباهي لهذه المعلومة.

[18] - راجع الحاشية رقم 16.

3. التأثير الإيطالي في صناعة المعادن بصفة عامة وصناعة المفاتيح على وجه خاص في ليبيا خلال النصف الأول من القرن 20م.

ويأتي كالون الباب بالضرورة معاصرا للمفتاح الخاص به، أي العقود الأولى من القرن 20م (لوحة رقم 6).

فتحة الباب (0.90 متر اتساع، 1.70متر ارتفاع، ويمثل نموذج لمتوسط أبعاد أبواب بيوت غدامس) وتؤدي فتحة الباب إلى سقيفة[19] ممر منكسر (دهليز أو دركاة) ذو مسقط بشكل حرف **L** (بصورة مخففة)، بصدر المدخل مباشرة باب يوصل إلى غرفة التخزين بالطابق الأرضي، ليمثلا البابين معاً طرفي الضلع القصير لممر المدخل (شكل رقم 3)، وهذا الجزء من المدخل مسقف بسقف من سعف النخيل محمول على أربع سنانير من جذوع النخل. وبزاوية عمودية على الضلع القصير للممر المنكسر– جهة اليسار بالنسبة للداخل– يوجد الضلع الطويل للممر المنكسر وهو مستطيل المسقط ويفضي عبر فتحة معقودة إلى بسطة حيث يبدأ منها – جهة اليمين– بزاوية عمودية على هذا الضلع الطويل الدرج الصاعد للطابق الأول. يشغل جدار الدهليز في المساحة فيما بين باب حجرة التخزين وبداية السلم الصاعد – جهة اليمين للداخل من البيت– دخلة جدارية تستخدم لوضع الجرار (الأزيار) الفخارية لحفظ الزيوت والخل والتمور(لوحة رقم 10). الدخلة مسقوفة بقبو يشرف على الممر بواسطة عقد موتور. سقف الجزء الطولي من الممر من جريد النخيل محمول على سنانير من جذوع النخيل (لوحة رقم 11).

تتوسط السقف بمحازاة الجدار الشرقي لحجرة التخزين تقريباً فتحة مربعة (طول ضلعها 35 سنتيمتر تقريباً) مغشاة بمصبعات حديدية. وتمثل هذه الفتحة نافذة الاتصال الوحيدة مع العالم الخارجي للإضاءة والتهوية. حيث توجد نافذة مماثلة تتوسط سقف غرفة المعيشة أعلى هذه حجرة التخزين، والتي تتصل بدورها مع السطح السماوي المكشوف، وتنتقل أشعة الشمس والإضاءة عبر هذه النوافذ بواسطة المرايا العاكسة المنتشرة بغرفة المعيشة (لوحة رقم 22).

تمثل حجرة التخزين بالطابق الأرضي – فضلا عن ممر الدخول– الوحدة المعمارية الرئيسية بهذا الطابق للبيوت الغدامسية، ويغلق عليها مصراع واحد من صنانير النخيل (لوحة رقم 12). وهي حجرة أو حاصل لتخزين[20] الغلال والمنتجات الزراعية باعتبارها أكثر الأماكن برودة بالمنْزل؛ لحفظ

[19] - يستخدم في ليبيا مصطلح 'سقيفة' بدلا من 'الدركاة'

[20] - لا يخلو أي منزل غدامسي من وجود عدد من الحجرات تستعمل كأماكن لتخزين الغلال والأدوات الزراعية، وكل ما يلزم المنْزل من تموين، وتكون أعدادها ومساحاتها مختلفة من منْزل إلى آخر حسب المساحة. انظر:
Daza, ***Understanding The Traditional Built***, 108 ; Aymo (J.), "La maison ghadamsie", 168.

الحبوب، كما يتم بها عمل الخل المحلي وكبس التمور. وحجرة التخزين هذه مستطيلة الشكل، وهي مسقوفة بجريد النخيل المحمول على تسع صنانير من جذوع النخيل (لوحة رقم 13).

شكل رقم (3) مسقط أفقي للطابق الأرضي لبيت دا باباني بغدامس (رسم الباحث)

في نهاية الممر سالف الذكر توجد بسطة بارتفاع 0.20 متر تؤدي إلى سلم (لوحة رقم 14) صاعد يتكون من عشر درجات يؤدي إلى الطابق الأول. يبدأ السلم بفتحة معقودة بعقد موتور، متوسط اتساع فراغ السلم 1.05 متر، وعلى مسافات توجد عقود موتورة ترتكز على الجدارين الجانبيين لفراغ السلم، وتحمل بدورها الدرج الأعلى والذي يوصل من الطابق الأول للسطح. جدران السلم وسقفه مغطى بكلسة جيرية بيضاء، وثمة بقايا زخارف هندسية ونباتية كانت تزخرف السقف وبواطن العقود أعلى درج السلم (لوحة رقم 15).

يؤدي السلم ذي العشر درجات إلى فتحة باب مستطيلة (0.80 متر اتساع **X** 1.60 متر ارتفاع) داخل دخلة معقودة، ويغلق على فتحة الباب هذه باب من دلفة واحد من سنانير من جذوع النخل (لوحة رقم 15–16). ومثبت على الباب مطرقة حديدية أخرى؛ مما يعكس وجود مستوى ثان من

الخصوصية للمساحات خلف هذا الباب[21]. ويفضي هذا الباب عند نهاية الدرج سالف الذكر إلى بسطة مستطيلة المسقط (تقريباً 1.35متر**X**1.80متر) بها ارتدادات بالضلع جهة الداخل المتصل بغرفة المعيشة. بهذه البسطة بابان الأول جهة اليمين يُصعد إليه بدرجتين سلم ويوصل لغرفة المعيشة، والثاني بصدر مدخل البسطة نفسها من السلم، ويوصل – بعد عتبة الباب تهبط لمستوى منخفض عن أرضية البسطة– إلى غرفة المرحاض (شكل رقم 4، لوحة رقم 16).

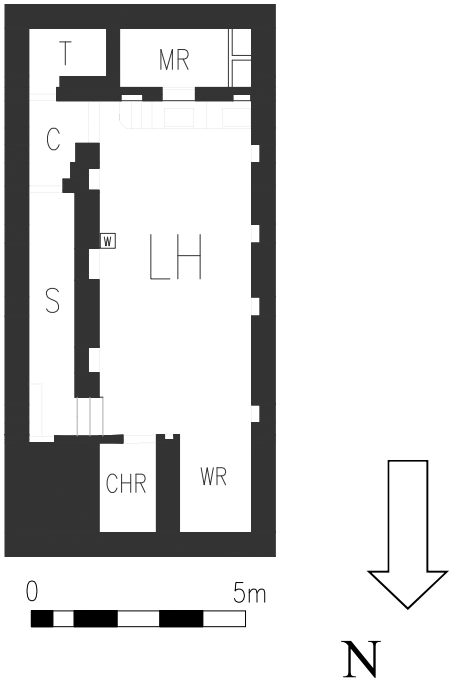

شكل رقم (4) مسقط أفقي للطابق الأول لبيت دا باباني بغدامس (رسم الباحث)

S	الدرج الصاعد بين الطوابق
C	البسطة الموصلة للوحدات المعمارية بالطابق الأول
T	غرفة المرحاض
LH	غرفة المعيشة
WR	الكبة (أو القبة، غرفة الزوجة)
CHR	غرفة الصغار (الأطفال)
MR	غرفة الزوج (صاحب البيت)
W	فتحة مغشاة بمصبعات لتهوية واضاءة غرفة التخزين أسفل غرفة المعيشة

عبر هذه البسطة سالفة الذكر يتم الوصول للوحدات المعمارية بالطابق الأول للمنزل، وللبيت الغدامسي بصفة عامة. جدير بالذكر أن فراغات الطابق الأول في هذا السياق تتكون من أربع وحدات معمارية رئيسية (شكل رقم 4–6) تمثل أربع مستويات متباينة أفقياً ورأسياً، ويمكن توضيحها باعتبار البسطة بنهاية الدرج الصاعد للطابق الأول هي نقطة القياس وذلك على النحو التالي: 1) المرحاض يمثل أول مستوى أفقي وهو منخفض عن أرضية البسطة بمقدار درجة سلم حوالي 0.20

[21] - يروي المعمرون من أهل غدامس أن الباب الرئيسي للبيت كان قديما يترك غير مغلق فترات النهار، بحيث يستطيع أي أحد أن يدخل منه. وكانت النساء يستخدمن عين المياه فى أوقات معلومة لا يخرج فيها الرجال ويسيرون في الشوارع في هذه الأوقات؛ فإذا جاء وقت الصلاة وكان أن تأخرت إحدى النسوة عند عين الماء، فتدخل سريعاً إلى أول باب دار تجده، وعندما تصعد لباب الطابق الأول تطرق الباب بالمطرقة، وكانت هناك طريقة طرق معينة للرجال وأخرى للنساء، ويترتب عليها أن يفتح الباب من يخصه نوع الطرق، فإذا كانت هذه الحالة ينسحب الرجال من غرفة المعيشة، بحيث تصعد المرأة إلى سطح المنزل وعن طريق الممرات الرابطة بين أسطح المنازل تتوصل إلى منزلها. المصدر، رواية شفهية من المعمرين أصحاب البيوت القديمة بغدامس.

متر (في البيوت الغدامسية بصفة عامة تنخفض أرضية غرفة المرحاض بمتوسط درجتين سلم)، وارتفاع هذا المستوى كذلك منخفض فهو يرتفع هنا حوالي 1.6 متر.

لوحة 15، الدرج الرابط بين الطابقين الأرضي والأول، بيت دا باباني

لوحة 16، البسطة بنهاية الدرج الموصل للطابق الأول، بيت دا باباني

لوحة 17، الجدار الغربي للبسطة بنهاية الدرج الموصل للطابق الأول، بيت دا باباني

لوحة 18، مدخل غرفة المعيشة من الداخل، بيت دا باباني

المستوى الثاني يمثل غرفة المعيشة الرئيسية وأرضيتها ترتفع عن مستوى البسطة بدرجتين إلى ثلاث درجات سلم، ومن حيث الارتفاع فهى أكثر وحدات البيت ارتفاعاً على الاطلاق (متوسط ارتفاع 4.5 متر). المستويان الثالث والرابع يتوصل إليهما من داخل غرفة المعيشة ومن ثم فسيضاف لمستوى أرضيتها الفرق بين غرفة المعيشة والبسطة الخارجية.

أرضية المستوى الثالث أعلى من مستوى أرضية غرفة المعيشة بقدر درجة سلم، لكن ارتفاعها لا يتجاوز 2 متر وهي تشمل الكبة (غرفة الزوجة) وغرفة الأطفال المتجاورتين. المستوى الرابع والأخير للطابق الأول هو غرفة الزوج وتشغل الضلع المقابل لغرفة الزوجة والأطفال بغرفة المعيشة، وترتفع أرضيتها عن مستوى أرضية غرفة المعيشة بمتوسط 1,5متر –بحيث تمتد عرضياً لتشمل المساحة أعلى المرحاض في أول مستوى– ويرتفع المستوى الرابع بمتوسط ارتفاع 2.25 متر.

الطابق الأول/ المستوى الثانى/ غرفة المرحاض. ويتوصل إليها عبر فتحة باب بالبسطة عند نهاية الدرج الصاعد للطابق الأول (شكل رقم 4). فتحة الباب مستطيلة الشكل اتساعها 0.65 متر وارتفاعها 1.20 متر، ويغلق عليها باب بمصراع واحد يؤدى إلى أرضية الغرفة التي تنخفض بقدر 25 سنتيمتر عن أرضية البسطة الخارجية. سقف الغرفة من جريد النخيل محمول على ثلاث صنانير من جذوع النخيل، وارتفاعه 1.60متر. يعرف هذا المرحاض في البيوت الغدامسية بالمرحاض الجاف، وموقعه ثابت أمام الدرج المؤدي إلى الطابق الأول، فوق فراغ محكم الإغلاق، يفتح فقط عند نقل المخلفات. والمرحاض الجاف بهذه الكيفية يمثل معالجة فعالة لتجنب استخدام الماء على الجدران الطينية، وتقليل كمية المخلفات المتراكمة، وسهولة نقلها. وتعالج مشكلة الروائح بسكب بقايا الحطب المُحترق (الرماد) وراء المخلفات لامتصاص الروائح. ويتم نقل تلك المخلفات حيث تستخدم في عملية تسميد الأراضى.

الطابق الأول/ المستوى الثانى/ غرفة المعيشة. بالجهة الغربية من بسطة الدرج سابقة الذكر (لوحة رقم 16)، يوجد درج صاعد من قلبتين يوصل إلى غرفة المعيشة أو وسط الحوش[22] ؛ وتمثل فراغ الاستقبال الرئيسى للرجال والمعيشة لأهل البيت، وهو أكثر الأماكن زخرفة وعناية بالبيت (لوحة رقم 19–20،22). ويتم الدخول لغرفة المعيشة عبر فتحة باب مستطيلة (اتساعها 1 متر وارتفاعها 1.78متر). بجدار البسطة المقابل لفتحة باب غرفة المعيشة، وعلى ارتفاع 1.10متر تقريباً من مستوى أرضية البسطة توجد دخلة معقودة محدودة الارتفاع 25 سنتيمتر توضع بها أواني فخارية (لوحة رقم 17). وعلى ارتفاع حوالي 25 سنتيمتر أعلى الدخلة هذه توجد عدة صفوف من كريات

[22] - الحوش هو اللفظ الأكثر استخداما للدلالة على المنزل والبيت.

بارزة (لوحة رقم17، شكل رقم5)، وهي تمثل –بحسب رواية صاحب البيت وكذا المعمرين من أهل المدينة– إلى عدد الذكور المولودين والمختونين بهذا البيت.

لوحة 19، غرفة المعيشة ، بيت دا باباني

لوحة 20، غرفة المعيشة ، بيت دا باباني

غرفة المعيشة مستطيلة المسقط 7.85 متر**X** 3.55 متر، وهي تمثل قاعة لبيت من البيوت كبيرة المساحة حيث توجد قاعات بيوت أخرى مساحتها أقل من نصف هذه المساحة تقريباً. سقف الغرفة من جريد النخيل المحمول على أربعة عشر سنانير من النخيل موضوعة على حدها (سيفها) (لوحة 21).

يتوسط السقف تقريباً فتحة صغيرة مربعة مغشاة بمصبعات تفتح على سطح البيت للإضاءة والتهوية (لوحة رقم 21). تتصل هذه الفتحة بالفتحة الأخرى بأرضية هذه الغرفة (شكل رقم 4) جهة الجدار الغربي – والتي سبق ذكرها فى غرفة التخزين بالطابق الأرضي– بواسطة المرايا بالزاوية الشمالية الشرقية (لوحة رقم 22) للإضاءة وتوصيل أشعة الشمس غير المباشرة للغرفة بالطابق الأرضي.

جدران الغرفة مدهون بكلسة بيضاء، ومنفذ عليها زخارف هندسية ونباتية بألوان متعددة مع غلبة اللون الأحمر حتى ارتفاع 3 متر تقريباً (لوحة 19–20)، كما تنتشر على الجدران الأطباق النحاسية[23] والأخرى المصنوعة من سعف النخيل والتي تصل للسقف بحيث لا تترك فراغ، وأيضا المرايا لعكس الضوء والزخارف (لوحة رقم22). وفضلاً عن الزخارف فثمة خزانات وسلالم ودخلات تشغل جدران الغرفة على النحو التالي:

الجدار الغربي (شكل رقم 5، لوحة رقم 23) يبدأ جهة الجنوب بالباب الموصل للغرفة، ويقابله في الجهة الشمالية للجدار الباب المؤدي للسطح (لوحة رقم 24). والجدار فيما بين البابين تشغله ثلاث خزانات جدارية: الوسطى مركزية محورية –بالنسبة للخزانتين الأخريين والجدار ككل– تتوسط الجدار تقريباً على ارتفاع 43 سنتيمتر من أرضية الغرفة، وهي مستطيلة (0.75 متر**X** 1.05 متر ارتفاع)، ويغلق عليها دلفة واحدة من الخشب مقسمة لحشوات، مزخرفة بزخارف هندسية ونباتية بألوان متعددة. تكتنف هذه الدخلة المركزية من كل جانب خزانة مماثلة بأبعاد أصغر على ارتفاع 16 سنتيمتر من أرضية الغرفة. المساحات فيما بين البابين والخزانات تشتمل على مربعات جصية متنوعة ذات زخارف هندسية ونباتية، وتعلوها مثلثات.

وفي الجدار الشرقي (شكل رقم5، لوحة رقم 25) المقابل نجد عوضًا عن الخزانات الحائطية الكبيرة توجد أربع دخلات جدارية صغيرة الأبعاد نسبيًا (متوسط الأبعاد بالسنتيمتر: 44 عرض، 37 ارتفاع،

[23] - جدير بالذكر أن الأطباق النحاسية لا تعنى فقط للزخرفة وإنما لها دلالة مادية عند أهل غدامس فهى تعكس الحالة المالية لصاحب البيت، وقديما – كما يروى المعمرون – عندما كان يخرج الرجال للتجارة وتتاخر القوافل لمدد تتراوح بين ستة أشهر والعام، كانت تستخدم هذه الأطباق لتباع وتعوض احتياجات البيت عند الحاجة أي أنها كانت بمثابة احتياطي نقدي للبيت عند الضرورة شأن الأعمال الذهبية الخاصة بالنساء الآن إلى حد ما، وعند طول غياب الرجل يزور الأهل بيته وبمتابعة كم الأواني النحاسية المعلقة بالغرفة يتعرفون حالة الأسرة المادية في غياب الزوج ومدى حاجتها للعون والمساعدة دون أن يحتاجوا لسؤالها. وقد وصف المؤرخ الإيطالي Coro مساكن مدينة غدامس أثناء زيارته للمدينة، ويؤكد وصفه نفس الصورة التي عليها البيوت حتى الآن، فيذكر بأن المنازل كلها مفروشة من الداخل، وليست هناك أي منطقة غفل من الزخرفة ... وهي مصنعة في غدامس، وتمتاز بجمالها الفائق، ويزيد من جمالها محتويات البيت الأخرى التي جعلت لأغراض الزينة، وقد علقت كلها على الحائط. ومن الأشياء الملفتة للنظر في بعض منازل غدامس تلك الأطباق المعمولة من سعف النخيل مزينة بالقماش المختلف الألوان ... ويلاحظ كثرة الجرار من مختلف الأحجام مزخرفة بشتى الألوان ... وبالإضافة إلى الجرار هناك الصحون النحاسية والخشبية والأكواب الفضية التي اشتهر بصناعتها سكان غدامس، انظر: كورو، ***ليبيا أثناء العهد العثماني الثاني***، 123.

15 عمق) على ارتفاع 1.60 متر من أرضية الغرفة، الدخلتان الطرفيتان معقودتان والوسطيتان مستطيلتان، تستخدم الدخلات لوضع الأواني النحاسية والفضية. والمساحات المحصورة بينها تشتمل على مربعات جصية متنوعة ذات زخارف هندسية ونباتية، وتعلوها مثلثات شان الجدار الغربي. ويحدد جميع المساحات من دخلات جدارية ومساحات زخرفية الأطباق النحاسية بغزارة ووفرة كبيرة مكونة أشكال مختلفة من عقود ومستطيلات ومربعات ودوائر. وبصفة عامة لا توجد مساحة غفل من الزخرفة بالمستوى العلوى (يبدأ من ارتفاع 1.60 متر من مستوى الأرضية) لهذا الجدار.

لوحة 21، سقف غرفة المعيشة ، بيت دا باباني

لوحة 22، غرفة المعيشة ، بيت دا باباني

لوحة 23، غرفة المعيشة، الجدار الغربي، بيت دا باباني

لوحة 24، مدخل السلم المؤدي للسطح من داخل غرفة المعيشة، بيت دا باباني

لوحة 25، غرفة المعيشة، الجدار الشرقي، بيت دا باباني

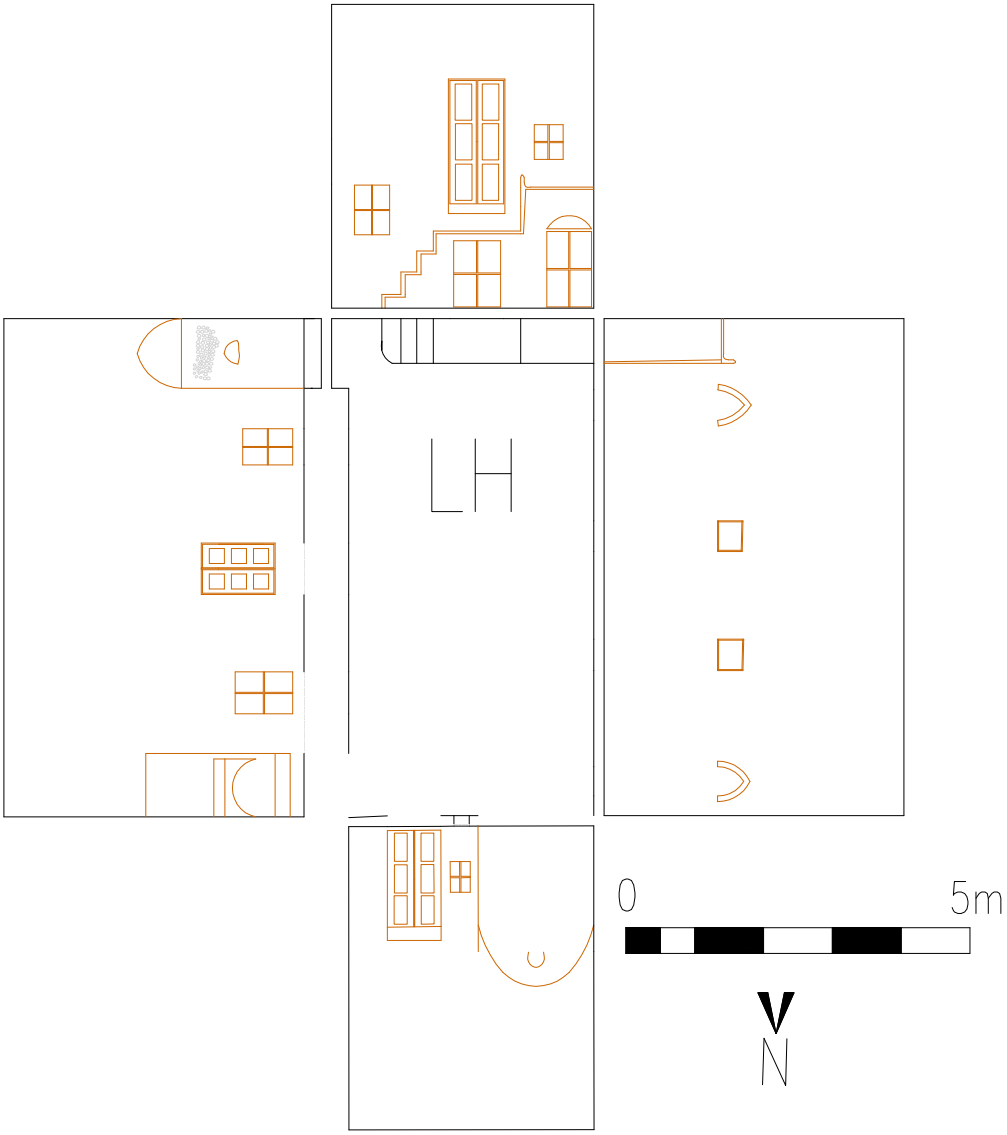

شكل رقم (5) مسقط أفقي لغرفة المعيشة بالطابق الأول لبيت دا باباني بغدامس (بالوسط)،
يحيط به أربعة مساقط رأسية لواجهات الغرفة الأربع الداخلية (رسم الباحث)

الجدار الشمالي أو الواجهة الشمالية الداخلية لغرفة المعيشة (شكل رقم5، لوحة رقم 20) يمثل واجهة غرفتين: الشرقية تعرف باسم الكبة[24] وهي غرفة الزوجة أو صاحبة الدار، والثانية تستخدم كحجرة

[24] - الكبة (القبة، أو القباه، حجرة الزواج)، وهي بيت خاص بالعروس ليس له باب تسدل عليه ستارتان مختلفتان ويحاط من جهاته الأربع بأربعة أعمدة خشبية غلاظ منقوشة ومدهونة بالأحمر تثبت في البيت وتوضع تحت الأعمدة عروق نجم، وتستعمل لجلوس العروس عند قدومها للبيت وفي حالة وفاة زوجها تجلس فيها لتقبل العزاء، وتبقي الكبة قائمة بالبيت، ويجاورها حجرة الأطفال الصغار ليكونوا على مقربة

للأبناء (الأطفال). الجدار فيما بينهما بعرض (سمك) 0.54 متر، ويوجد به خزانة صغير على ارتفاع 0.50 متر من أرضية الغرفة، وأبعادها بالسنتيمتر(22 عرض، 44 ارتفاع، 12 عمق)، ويغلق عليها دلفة واحدة من الخشب مقسمة لأربع حشوات. وهذه الخزانات الصغيرة كانت تستخدم للبنات الصغار للتدريب والتمرن عليها في الرسم الزخرفة واستخدام الألوان. هذه الواجهة مزخرفة كذلك حتى السقف بالزخارف الهندسية والنباتية المنفذة بالأكاسيد الملونة، والتى يغلب عليها اللون الأحمر، كما يزينها الأطباق النحاسية وأخرى مصنوعة من سعف النخيل.

الجهة المقابلة أي الجنوبية (شكل رقم5، لوحة رقم 19، 22) والتى تمثل واجهة غرفة الزوج (صاحب الدار أو الغرفة الرئيسية)، حيث يتوسط الدرج الموصل لهذه الغرفة الجدار الحنوبي لغرفة المعيشة. بداية هذا الدرج توجد بصدر فتحة مدخل غرفة المعيشة، على بعد 0.73 متر منها، وتمتد درجاته بشكل موازي للجدار الجنوبي وتبرز عنه 0.64 متر (وهو يمثل طول درجة السلم، ومتوسط ارتفاعها 0.30 متر)، وبعد ثلاث درجات توصل إلى بسطة مستطيلة (0.64 متر**X** 1.27 متر) تتقدم مدخل الغرفة بهذه الجهة، ثم يستمر السلم مرتفعاً درجة أخرى حتى يتصل بالجدار الشرقي، مكوناً مابين البسطة أمام مدخل الغرفة وبين الجدار الشرقي جلسة مرتفعة تشرف على غرفة المعيشة بدرابزين حجرى بارتفاع بمقدار ارتفاع درجة السلم تقريباً، وتشبه كرسي الإمام الموجود بأحد ركني جدار القبلة في معظم المساجد العثمانية بالبلقان. أُستخدم الفراغ أسفل هذا الدرج لعمل خزانتان حائطيتان يغلق على كل منها دلفة خشبية مقسمة لحشوات ومزخرفة (لوحة رقم 19، شكل رقم 5).

ويمثل باب الغرفة بهذه الجهة مركز الجدار، وهي فتحة مستطيلة 0.80 متر **X** 1.77 متر، ويغلق عليها مصراع من الخشب مقسم لحشوات ومزخرف بزخارف هندسية ونباتية بألوان متعددة. ويكتنفها من كلا الجهتين خزانة حائطية على ارتفاعات متباينة وبأبعاد مختلفة كذلك. وعدا ذلك فالواجهة مزخرفة شأن بقية الواجهات، مع انتشار المرايا بها ضمن العناصر الزخرفية.

الطابق الأول/ المستوى الثالث/ الكبة وغرفة الأطفال (شكل رقم 4–5)، وتكونا أرضيتا الغرفتين في نفس مستوى أرضية غرفة المعيشة أو ترتفعا (كلاهما أو إحداهما دون الأخرى) عنه بمقدار درجة سلم عادة. وفي هذا المنزل يتوصل للكبة من غرفة المعيشة عبر فتحة معقودة بعقد نصف دائري اتساعها 1.68 متر وارتفاعها حتى قمة العقد 2.30 متر (لوحة رقم 20). الكبة مستطيلة المسقط 1.68*2.30 متر، و سقفها من الداخل مغطى بطبقة من الجص.

من أمهم، للمزيد انظر: Daza, ***Understanding The Traditional***, 109-110 ؛ مروان، "الحياة الاجتماعية بغدامس ..."، 173 ؛ خيرى، "غدامس جوهرة الصحراء"، 116-117.

الغرفة الثانية (شكل رقم 4–5)، (المعروفة باسم غرفة الأطفال) غربى الكبة، بابها بغرفة المعيشة اتساع فتحته 0.78 متر وارتفاعها 1.40متر، ويغلق عليها باب خشبي من دلفتين (لوحة رقم 20). الغرفة مستطيلة المسقط 1.30متر **X** 2.30 متر، مسقوفة بجريد النخيل المحمول على جذوع من النخيل، وارتفاع السقف 1.80 متر.

الطابق الأول/ المستوى الرابع/ غرفة صاحب الدار (شكل رقم 4–5) وتمثل المستوى العلوى الرابع والأخير للطابق الأول، ويتوصل إليها بواسطة السلم سابق الذكر بالجدار الشمالي لغرفة المعيشة. هي مستطيلة المسقط 1.70متر **X** 4 متر تقريبًا، مسقوفة بجريد النخيل المحمول على تسع سنانير من جذوع النخيل. وتستخدم هذه الغرفة من قبل صاحب الدار لحفظ المخزون الاستراتيجي للتموين من التمور والزيوت ولذا يوجد بها أماكن للتخزين، كما يحفظ بها الأشياء الثمينة والمتعلقات الخاصة به، وأيضا تستخدم كمبيت لصاحب البيت.

الطابق الثاني والسطح. توصل فتحة الباب بالجهة الجنوبية للجدار الغربي بغرفة المعيشة كما ذُكر عاليه إلى سلم يوصل بدوره إلي السطح. وثمة طابق يمثل مستوى بينى بين الطابق الأول والسطح، وهو يمثل وحدة معمارية أعلى الغرفتين بالجهة الجنوبية لغرفة المعيشة (الكبة وغرفة الأطفال) ذواتا الارتفاع المحدود نسبيا. ويتوصل إلى هذه الغرفة عبر سلم صغير متفرع من السلم الموصل للسطح (لوحة رقم 26). وتستخدم هذه الوحدة المعمارية كغرف تخزين كذلك.

يتم الوصول عبر فتحة الباب المؤدية للسطح من غرفة المعيشة بواسطة درجتى سلم لبسطة بصدرها دخلة معقودة تستخدم لوضع الجرار وتأخذ شكل يشبه شكل المدفأة، وسقفها من أعلى من الخارج مستو (لوحة 24–26). وتقود البسطة المذكور شمالا إلى سلم صاعد يوصل إلى فتحة باب يغلق عليها مصراع خشبي توصل بدورها إلى سطح البيت عبر مجموعة أخرى من درجات السلم (لوحة27). وجود باب يفصل هنا ويؤكد على وجود مستوى مغاير من الخصوصية لهذه المساحة.

الدرجتان الأولتان للسلم الصاعد من الطابق الأول ضيقتان في الاتساع (العرض) دون بقية درجات السلم؛ وذلك لشغل هذه المساحة بالدخلة الجدارية المعقودة سالفة الذكر، ثم تلتحم الدرجة الثانية للسلم مع سقف الدخلة الجدارية مكونة سلم فرعي يتجه عكسيا من درجتين، ويقود للغرفة البينية بهذا المستوى (لوحة رقم 26)، والتي تشغل المساحة أعلى الغرفتين (الكبة وغرفة الأطفال) بالمساحة الجنوبية لغرفة المعيشة كما سبق ذكره. ويؤدي السلم ذو الدرجتين هذا لعتبة من درجتين ثم لفتحة باب مستطيلة يغلق عليها مصراع مكون من ستة سنانير من خشب النخيل تفضي إلي داخل غرفة التخزين المذكورة.

لوحة 26، الدرج الرابط بين غرفة المعيشة والسطح باتجاه غرفة المعيشة، بيت دا باباني

لوحة 27، الدرج الرابط بين غرفة المعيشة والسطح باتجاه السطح، بيت دا باباني

لوحة 28، المطبخ بسطح بيت دا باباني

لوحة 29، السطح وبه السقيفة والخزانة والسلم المؤدي للمرات الحركة أعلى الأسطح والرابطة بينها، بيت دا باباني

ورجوعا إلى السلم الصاعد الموصل للسطح حيث يوصل لبسطة يليها فتحة باب يغلق عليها دلفة خشبية واحدة من ستة سنانير من خشب النخيل. ويوصل هذا الباب لمجموعة اخرى من درجات السلم توصل بدورها إلى بسطة بصدرها باب المطبخ ، وبجهتها اليمنى المدخل إلى السطح.

المطبخ[25] مستطيل المسقط 2 متر **x** 4 متر تقريبًا، مسقوف بجريد النخيل المحمول على سبع صنانير من جذوع النخيل، وارتفاع السقف 2 متر (لوحة 28). وتوجد فتحة بالسقف للإضاءة والتهوية وخروج البخار والغازات. وبالضلع الطويل للمطبخ جهة الداخل توجد ثلاثة أفران للخبز، كما توجد مواقد الطهي وبعض الأدوات الخاصة بالمطبخ.

السطح. ومن البسطة سالفة الذكر جهة يمين الصاعد الفتحة الموصلة للسطح. يحمي السطح جدران بارتفاع قامة الآنسان تقريباً تحقق له الخصوصية كذلك. ويوجد بالسطح بالجهة الشمالية سقيفة (لوحة رقم 29) تفتح على السطح بكامل اتساعها بواسطة بائكة من عقدين يرتكزان في الوسط على دعامة

لوحة 30 ، أسطح مساكن غدامس والطرق الخاصة بحركة النساء بينها (من أعلى سطح بيت عبد السلام ادا باباني)

شكل 6 ، قطاع رأسى لمنزل غدامسى يوضح الناحية الإنشائية، وتوزيع الفراغات، عن: Daza, Understanding The Traditional Built

[25] -تتشابه المطابخ (يعرف فى اللهجة الغدامسية المحلية باسم **أدجورير**) في المنازل الغدامسية بصورة عامة، ولا تختلف إلا في بعض الفروق البسيطة، فالمطبخ بصورة عامة توجد به المواقد النصف كروية من ثلاثة إلى خمسة مواقد والتنور لخبز الأرغفة، وكذلك توجد بالمطبخ الكوات لوضع مستلزمات المطبخ من الملح والتوابل وغيرها، وكذلك توجد الفتحات الخاصة بالتهوية، وهناك مطابخ توجد بداخلها سلالم تؤدي إلى سطح المطبخ عبر الفتحة التي في السقف وهي تحل محل السلالم الموجودة في السطح التي تستخدمها النساء للتنقل عبر الدروب. انظر: Daza, ***Understanding The Traditional Built***, 111 ؛ خيرى، "غدامس جوهرة الصحراء"، 116.

وفي الأركان على الجدران. كانت تحوي هذه السقيفة حجر الطاحون لطحن الحبوب[26] وتعرف هذه الحجرة في العمارة الغدامسية باسم الكمار[27]. ويجاورها خزانة غالباً كانت تستخدم لتخزين الحبوب. ويلى الخزانة جهة الغرب درج صاعد من ست قلبات يؤدي لفتحة باب يغلق عليها مصراع خشبي ويوصل لسقف غرفة الكمار سابقة الذكر، ولممرات النساء عبر الأسطح (لوحة رقم 29).

وبالجدار الجنوبي للسطح مساحات مغطاة بالجص ومزخرفة بأشكال هندسية ونباتية. ودخلات معقودة كانت تمثل أماكن للصغار لتدريبهم على الزخرفة والتلوين والرسم، وآثار الأماكن التى كان مثبتًا بها مرآيا. وفي وسط السطح توجد فتحة فى الأرضية مغشاة بمصبعات حديدية تساعد على تهوية وإضاءة الصالة الرئيسة (لوحة رقم 21–22).

الدراسة التحليلية للمسكن الغدامسي

المسكن ومسمياته. المِسكِنْ اسم مكان من الفعل سِكِنْ بكسر الكاف (أهل الحجاز يفتحون الكاف)، أي استقر وثبت، ومنه السكون أي عدم الحركة لما من صفته القدرة[28] علي التحرك، ومن ثم فإن السكون أو السكن دلالة علي الاستيطان والإقامة[29]، فيقال سكن فلان مكان أي توطنه وأقام به.

ويرجع تعدد مسميات العمائر السكنية المستقلة[30] (المسكن– البيت– الدار– المنزل– الحوش– القصر– السرايا– الكوشك ...) إلي ثراء اللغة العربية في ألفاظها ومترادفاتها[31] من جهة، ودلالة المسمى التخطيطية والمعمارية والوظيفية من جهة ثانية. معظم هذه المسميات عربي الأصل، وقليل منها ما هو مشتق من لغات أخري علي رأسها الفارسية والتركية.

جدير بالذكر أن لفظ حوش هو الشائع للدلالة على العمائر السكنية المستقلة فى ليبيا بصفة عامة، حيث أن أهم عناصر عمارته وجود الفناء أو الحوش؛ وكدلالة على أهمية ودور الحوش فى المسكن اكتسب المسكن ككل اسم الحوش للدلالة عليه. وعلى الرغم من غياب عنصر الفناء الداخلي في البيوت الغدامسية إلا أنه يطلق عليها أحواش كذلك.

---

[26] - حجرة طحن الحبوب موجودة في العديد من المنازل الغدامسية إن لم تكن جلها، توضع فيها الرحاة، وهي أداة لطحن الحبوب والغلة وغيرها من احتياجات المنزل، وتوضع الرحاة على أرض الحجرة مباشرة وفي بعض الأحيان تثبت بالجبس وتحاط ببروز من الجبس يشكل حيز من أجل حماية الطحين من البعثرة في الحجرة.

[27] - الكمار فى العمارة التقليدية فى المملكة العربية السعودية هو عبارة عن مجموعة من الأرفف على هيئة صندوق ملتصق بالحائط تصف بداخله الأدوات الخاصة بالقهوة، انظر: النويصر، **خصائص التراث العمرانى فى المملكة العربية السعودية**، 130.

[28] - المناوي، ***التوقيف على مهمات التعاريف***، 410.

[29] - المناوي، ***التوقيف على مهمات التعاريف***، 411.

[30] - هناك وحدات وعمائر سكنية أخرى غير مستقلة مثل الوحدات السكنية داخل العمائر الدينية والتجارية، أو المساكن الجماعية مثل الرباع (مفردها ربع)، للاستزادة عن هذه المسميات ودلالتها اللغوية والمعمارية. راجع، محمد، ***العمائر السكنية الباقية بمدينة القاهرة***، 6-7، 13.

[31] - أبو عبد الله، **الألفاظ المختلفة في المعاني المؤتلفة**.

المواد الخام وتقنيات البناء

بنى الغدامسيون منازلهم بمواد خام محلية متوافرة فى البيئة، تتسم بموائمتها للمناخ في نفس الوقت؛ وتتمثل في الأحجار والطوب اللبن ومشتقات النخيل بصورة رئيسية. وتُبنى الأساسات عادة بالأحجار الرملية –متوافرة فى المناطق القريبة من غدامس–، وتكون على عمق مترين أو أكثر تحت الأرض، وبعد أن يرتفع الحائط عن الأرض نحو 1: 1.50 متر تبنى الجدران بالطوب اللبن؛ المصنوع من الطين المخلوط بالماء وببعض المواد العضوية مثل القش أو روث المواشى بنسب معينة لزيادة تماسكها[32]. سماكة جدران الأساسات لا تقل عن المتر، ثم تقل تدريجيا مع ارتفاع الجدران حتى تصل إلى 0.50 متر فى الجدران العلوية، ويتحقق ذلك باستخدام الطوب اللبن بأبعاد متفاوتة تقل من أسفل إلى أعلى[33] (شكل رقم 6). ويبلغ متوسط ارتفاع[34] المنازل –كما سبق القول– 10 :12 متر.

ويستخدم خشب النخيل كمادة رئيسية فى الانشاء وصناعة الوحدات والعناصر الخشبية بالمنازل الغدامسية. تستخدم الجذوع والأجزاء العريضة من خشب النخيل فى سقوف المنازل والأعمدة والأبواب والنوافذ والخزانات. ويتم تجهيز خشب النخيل قبل استخدامه عن طريق معالجته بالتمر، والملح، والجير، ويتم دفنه فى الأرض بحيث يمر عليه فصل الصيف وذلك بهدف عمل طبقة عازلة تحميه من التسوس. ويستعمل كذلك سعف وأوراق النخيل فى الأرضيات والأسقف كمادة مساعدة[35].

ويستخدم كذلك الكلس (أو الجبس) – يستخرج من أماكن قريبة من غدامس– فى الأرضيات وتبييض الجدران وبعض الزخارف. كما يستخدم الحديد لعمل الأقفال والمفصلات للأبواب كما يستخدم أحيانا لعمل مصبعات للنوافذ.

التخطيط

أدت مجموعة من المعطيات إلى تشابه تخطيط وتصميم المنازل الغدامسية؛ منها الظروف البيئية والمناخية، استخدام مواد خام محلية، تمرس البناءون لطرق بناء ثابتة متوارثة، الوحدة الاجتماعية حيث أن المدينة القديمة مقسمة إلى محلتين (أو منطقتين) هما بنى وليد و بنى وازيت، كل محلة تشمل ثلاثة (شوارع[36]) أحياء وهى على الترتيب مازيغ، درار، تصكو ثم تفرفرة، تنقزين وجرسان.

---

[32] - Daza, ***Understanding The Traditional Built***, 104-105.

[33] - يوشع، ***غدامس ملامح وصور***، 81.

[34] - يوشع، ***غدامس ملامح وصور***، 81.

[35] - Daza, ***Understanding The Traditional Built***, 105.

[36] - الشارع فى غدامس هو مجموعة من الناس انحدروا من أب واحد ويسكنون بجوار بعضهم البعض، ومن وفد عليهم تسموا بأسمائهم وسكنوا معهم، انظر: خيرى، "غدامس جوهرة الصحراء"، 113.

يتكون المنزل الغدامسي فى الغالب من ثلاثة طوابق (أو ثلاث مستويات رأسية)، وتشمل فراغات أو وحدات ومكونات المنزل: وحدة الاستقبال والمعيشة، حجرات للنوم، المخازن ، حجرات للتموين، الكبة، المرحاض، المطبخ، الكمار (للمبيت بسطح المنْزل)، والحظيرة ببعض المنازل، السلالم.

ومن أهم خصوصيات المسكن التقليدى بغدامس –مقارنة بالعمارة التقليدية فى معظم أنحاء العالم الإسلامى– هو عدم وجود الفناء الداخلى السماوى المكشوف؛ والاستيعاض عنه بالدور بسطح المنزل حيث يمثل العالم الخاص بنساء البيت (لوحة رقم 30). واختزل الفناء في فتحة سماوية صغيرة مغشاة بمصبعات بسقف كل من غرفة التخزين بالطابق الأرضي، والصالة الرئيسية للاستقبال (لوحة رقم 22).

نظام توزيع وحدات وفراغات المنزل الغدامسي

تتوزع الفراغات الخدمية بين الطابق الأرضى والطابق الأخير أو السطح حيث يوجد فى الطابق الأرضى غرفة الغسيل (أو الساقية)، والبئر (يكون عادة في الممر) ، وحجرة تخزين الغلال، وفى السطح يوجد المطبخ، بينما المرحاض بين الطابق الأرضى والأول فى نهاية الدرج المؤدى للمستوى العلوى الأول حيث يكون أسفله فراغ يستخدم كخزان للفضلات، وهذا الفراغ يغلق عليه باب، يفتح عندما يراد التخلص من تلك الفضلات[37]، ولا يخلو منْزل من وجود المرحاض.

حجرات الاستقبال والمعيشة والنوم تتجمع بصورة رئيسية فى الطابق الأول العلوى. والمستوى العلوى الأخير (أو الطابق الثانى أو السطح) حيث يحاط بسور يرتفع فوق خط النظر 'قامة الإنسان'، ويوجد به المطبخ، وكذلك يوجد به السقيفة أو الكمار (وهو مكان مخصص لرحى الحبوب)، والحظيرة (إن وجدت فهى بغرض علاج الأغنام والطيور عند الحاجة وليست لتربيتها)، كما يشتمل على ممرات خاصة لحركة النساء على الأسطح.

وثمة سلم لربط فراغات ومكونات البيت الموزعة رأسياً، وبحسب المساحة وما يترتب عليها من طريقة توزيع الوحدات وموقع السلم، فنجد نوعين رئيسيين من الدرج: الأول: يكون سلم واحد، يبدأ من الطابق الأرضي بالمنْزل ويوصل إلى فراغات الأدوار العلوية وصولا إلى السطح ومن أمثلته منزل عبد الحميد الوحشي. والنوع الثاني ينفصل فيه الدرج ليؤدى إلى وحدة معمارية –غالبا– غرفة المعيشة ثم يبدأ درج جديد من أحد أركانها ليكون أعلى الدرج الأول مثل نموذج درج بيت دا باباني. وغرفة الزوج في كل البيوت يصعد إليها بوحدة درج من خمس قلبات في المتوسط.

[37] - تستخدم الفضلات لتسميد الأراضى الزراعية المحيطة كما سبق القول فى وصف منزل عبدالحميد الوحشى.

والمنزل الغدامسي بهذا التصميم وفر له عمق مساحى ووحدات معمارية تمكنه من تلبية أغراض المسكن الوظيفية بصورة مُثلى.

العوامل المؤثرة على تخطيط المنزل الغدامسي

تأتى عوامل طبيعة الوظيفة، والمناخ، وتأثير المضمون الدينى على سبيل المثال تحقيق الخصوصية للنساء من أبرز محددات تصميم وتوزيع وحدات ومكونات المسكن الغدامسي.

فنجد تأثير عامل المناخ على توزيع الوحدات والطوابق؛ حيث اكتسب كل طابق مناخًا خاصًا به صيفًا وشتاءًا، هذا التوزيع سبب في التدرج في درجات الحرارة داخل البيت حيث يكون الدفء في الطابق العلوي القريب من الشمس والهواء، ويكون الاعتدال في الطابق الأوسط، بينما البرودة في الجزء الأرضي. وتوجد فتحة علوية في السقف تنشر الدفء والضوء في أرجاء المنْزل، وتسمح بمرور الهواء الدافئ الذي يلتقي مع الهواء البارد المتسرب من الفتحات الصغيرة، أو من فتحة الباب الموجود على الشارع المسقوف، حيث تؤدي هذه العملية إلى تبادل حراري وتجديد الهواء داخل المنْزل وجعله صحياً، وتقفل هذه الفتحات عند سقوط الأمطار أو هبوب عواصف رملية، لِمنع تسرب الأمطار والرمال والغبار إلى داخل المنزل.

وانعكس تأثير ذلك على وظيفة بعض الفراغات والوحدات؛ فنجد غرفة تخزين الغلال فى الطابق الأرضى حيث أكثر الأماكن بالبيت برودة ولا تصلها أشعة الشمس المباشرة لعدم فساد الغلال. بينما يستخدم السطح العلوي الخارجي للمنْزل كمصيف ليلي ومشتي نهاري خاصة للنساء اللواتي يجتمعن مع جاراتهن بعيدا عن أعين الرجال، ففى الأسطح تتم الزيارات بين النساء، وتتم عمليات البيع والشراء، ويؤثر القول عن أسطح منازل غدامس بأنها مدينة ثانية "*سطوح المدينة مدينة*[38]" (لوحة رقم 30).

ويعكس موقع المطبخ بسطح المنزل هذه العوامل المؤثرة مجتمعة؛ فكون المطبخ من أهم الضروريات في المنْزل حيث يمثل مكان إعداد الطعام، و جاء موقع المطبخ على السطح كنتيجة لتعامل الغدامسيين الحذر لاستخدام في ظل المخاطر الناتجة عن حرق الخشب، وطهي الطعام، وهي الأشد ضرراً على البيئة الداخلية للمدينة المغلقة، وموقعه هذا المتصل بالفضاء الخارجي يمثل معالجة مثالية لإبعاد خطر التلوث والحريق، وفى ذات الوقت يتكامل مع أدوار واستخدامات وظيفية أخرى للسطح حيث يقضين النسوة معظم أوقاتهن كما سبق القول.

[38] - مقولة للأستاذ فؤاد الكعبازى، انظر: خيرى، "غدامس جوهرة الصحراء"،116.

فقه العمارة السكنية الغدامسية

تحققت خصوصية كاملة للنساء فى المنازل الغدامسية عبر قصر استخدام الأسطح عليهن؛ وجعله عالما خاصاً بهن حيث تتم حركة النسوة عبر الأسطح من منزل لآخر (لوحة 30) بغرض الزيارة والبيع والشراء وغيرها. ويتم ستر السلم والسطح بسترة معمارية تحقق الخصوصية الكاملة للنساء على السطح. وفى نفس السياق يراعى فى ارتفاع المآذن ألا يتجاوز ارتفاعها بما يكشف أسطح المنازل. فيبلغ ارتفاع مئذنة جامع العتيق بغدامس 7.80 متر[39].

يظهر كذلك تأثير المضمون الدينى فى تصميم وموقع مدخل المنزل؛ فعادة يكون للمنْزل مدخل واحد، وتنتشر المداخل المنكسرة مما يحقق الخصوصية فضلاً عن العزل الحرارى والصوتى عن الخارج بمساعدة جدران الطوب اللبن السميكة. وجاءت فتحات الأبواب والنوافذ بحيث لا تكشف أى منها الجار، وهو ما يعرف فى فقه العمارة الإسلامية بالتنكيب، أى عدم مواجهة الأبواب أو النوافذ.

المنزل من الداخل.

يتسم تخطيط المنازل الغدامسية بالبساطة من الداخل شأن الواجهات الخارجية، فالغرف والحجرات بسيطة التخطيط، جدرانها مكسوة بطبقة من الطين الأملس الناعم (يتم تخميره فى أيام وربما أسابيع)، وسقوفها من جذوع النخيل، وكذا دلف خزاناته أو دواليبه الحائطية إن وجدت، وأرضياتها مكسوة بسعف وأوراق النخيل كطبقة عازلة لمنع تسرب الطين والكلس إلى الطوابق السفلى من المبنى.

وأيضا الأثاث ومحتويات المنزل من جرار وأوانى وسلال ومفروشات وأوانى وغيرها كلها تتسم بالبساطة وتصنعها عادة العروس من خامات محلية وبألوان مبهجة. ويكثر استخدام المرايا التى تلصق على الجدران، والصور الحائطية والأطباق النحاسية والأخرى المصنوعة من مشتقات النخيل والتى تعلق على الجدران، وبعض الأشغال الخشبية المخروطة وتستخدم للزينة ويصنع منها قنينات للعطور وتعرف باسم المشيربات.

وتزين الأبواب والجدران بزخارف متعددة من الأشكال الهندسية والنباتية والرموز، وكذلك زخرفت جدران غرف المعيشة والممرات الموصلة لها بزخارف جصية.

يلاحظ العناية بصفة خاصة بزخرفة الوحدات المعمارية التى يتم فيها استقبال الزوَّار، فنجد حوش الدار أكثر الفراغات بالمنزل عناية بالزخرفة. كذا الممرات التي يتم العبور عبرها للوصول إلى غرفة

[39] - الخازمى، ***المآذن الليبية فى العصر العثمانى***، 102 ، للاستزادة عن المئذنة انظر: 101-107، 189، وبصفة عامة لم يتجاوز ارتفاع المآذن ذات نفس التخطيط (المآذن المربعة) 12 متر.

المعيشة، حيث تكمّل الشكل الجمالي مجموع الدخلات الجدارية بالممرات المؤدية إليها، والجرار الفخارية الموضوعة بهذه الدخلات، والتي تذكرنا بنسق مشابه بالمنحوتات بمثل تلك الدخلات فى العمارة الكلاسيكية[40]، وهي هنا فضلاً عن الغرض الجمالي، تستخدم للتخزين.

تمثل زخارف فتحات وأبواب وعقود وسقف السلم الصاعد الموصل لغرفة المعيشة أيضًا أحد أهم الاستخدامات الزخرفية الدالة على أهمية المكان المقصود وقدر العناية به. ومن أجمل أمثلة زخرفة هذه الأماكن ما يوجد ببيت مهدم جزئيًا بمدينة غدامس (بيت رقم 132 بحي جارسان) من استخدام أطباق الفخار المطلي والمزخرف المزجج كعناصر زخرفية عالية القيمة لزخرفة بواطن عقود وسقف السلم الصاعد موصلا لغرفة المعيشة (لوحة رقم 31–33).

لوحة 31، الدرج الموصل لغرفة المعيشة ببيت رقم 132 بحي جارسان بغدامس

لوحة 32، طبق فخار مطلي مزجج يزخرف بواطن عقود الدرج الموصل لغرفة المعيشة ببيت رقم 132 بحي جارسان بغدامس

لوحة 33، طبق فخار مطلي مزجج يزخرف بواطن عقود الدرج الموصل لغرفة المعيشة ببيت رقم 132 بحي جارسان بغدامس

[40] - Daza, ***Understanding The Traditional Built***, 114.

وتختص زخارف وفرش منازل غدامس بنقوش جميلة زاهية الألوان يغلب عليها الأحمر والأخضر فالأصفر والبرتقالي على الترتيب. وكانت تاتى البودرة الخاصة بتلك الألوان من المدن الشمالية، ويتم تحضيرها محلياً[41] من قبل نساء غدامس بمهارة عالية؛ فتخفقنها بصغار البيض والصمغ العربى ومكونات اخرى بنسب معينة. وتُنفذ الزخارف بواسطة فرشاة تصنع من شعر الخيل أو ريش الدجاج.

وجدير بالذكر ثقافة تعليم وتدريب البنات الصغيرة على مهارات الرسم والتلوين والزخرفة ؛ وتخصيص مساحات صغيرة لذلك الغرض ضمن غرفة المعيشة، وعادة تكون قريبة من غرفة الأطفال والكبة أو في المساحة المحصورة بينهما، مثل دلفة خزانة صغيرة كما في بيت دا باباني (لوحة رقم **20**) أو تجويف داخل دخلة صغيرة بجدار حجرة الأطفال المشرف على غرفة المعيشة (لوحة رقم 34–35) وذلك لتشجيعهن وتدربهن على هذه الأعمال الفنية باستمرار منذ الصغر.

ينتشر في البيوت الغدامسية استخدام المرايا. وتمثل الأشكال الزخرفية المنفذة سواء بالجص أو على الخشب أو المنسوجات والأدوات استمرارية لموروث محلى ليبي بصفة عامة وغدامسي بصفة خاصة.

تمثل بعض زخارف البيت الغدامسي نماذج ذات اصول دينية وثنية ومسيحية[42] (شكل رقم 36–37)، وإن فقدت مع الوقت دلالتها الدينية، واستمرت كعناصر زخرفية تستخدم حتى وقتنا الحالى بأشكال مختلفة. ولعل رمز الالهة تانيت (إلهة الخصوبة فى ليبيا القديمة)، والخميسة من أهم هذه الأشكال.

وفي أحد البيوت الصغيرة (بيت رقم 99 حي تنقزين) حفظت الزخارف الأصلية للبيت نتيجة تغطيتها بطبقة من الجص والتي تم رفعها مؤخرا بعناية لتحفظ الزخارف الأصلية أسفلها. وتستحق هذه الزخارف دراسة مفردة مفصلة لتقنيات تنفيذها ومضمونها والتي تشتمل بصورة رئيسية على زخارف هندسية ونباتية فضلاً عن بعض الرموز والشارات والعلامات (لوحة رقم 36–38). وبقايا اللون الأحمر الغالب على الزخارف لازالت واضحة، بينما اختفت أثار أكاسيد الألوان الأخرى بدرجة كبيرة.

الماء

مادة البناء الأساسية فى المنازل بغدامس هي الطين، وهي مادة سريعة التأثر بالماء، ولذا اقتصر استخدام الماء في البيوت لأغراض الشرب والأكل فقط، وبواسطة أدوات محددة مثل الجرار والقرب، وجعلوا لها أماكن محددة في المطبخ وغرفة المعيشة.

ولكل منزل مكان معلوم على الساقية حيث يجلب الماء من عين الفرس مصدر الماء الوحيد

[41] - Daza, ***Understanding The Traditional Built***, 114.
[42] - Daza, ***Understanding The Traditional Built***, 111-112.

بغدامس، قريب من المسجد الجامع، وسط المدينة. وتقوم النسوة بنقل الماء إلى بيوتهن، بينما كان يتم الوضوء والاستحمام بأماكن معلومة ومخصصة كذلك على نفس الساقية المخصصة لكل شارع، وهناك قسم خاص بالرجال وآخر للنساء.

لوحة 34، الدخلات وأماكن الزخرفة جهة غرفة الأطفال ببيت رقم 99 حي تنقزين بغدامس

لوحة 35، تفصيل داخل الدخلة السفلية المعقودة باللوحة السابقة

لوحة 37، تفصيل للزخارف باللوحة السابقة

لوحة 36، الزخارف الأصلية بصدر مجلس غرفة المعيشة ببيت رقم 99 حي تنقزين بغدامس

لوحة 38، تفصيل للزخارف باللوحة السابقة

وفى ضوء ماسبق يمكن استخلاص سمات عمارة المساكن الغدامسية كنموذج للعمارة السكنية التقليدية وهى:

- عمارة بيئية متوافقة مع المناخ، غير ضارة بالبيئة.
- عمارة اقتصادية تقوم على مواد خام متوافرة فى البيئة ومتجددة زهيدة التكلفة.
- البساطة.
- الجمال الداخلى المحقق بأبسط الأدوات والألوان المبهجة.
- التوافق مع تأثير المضمون الدينى والإجتماعى متمثل فى الخصوصية، حق الجار، توفير بيئة خاصة بالنسوة ومجتمعهن.

مقارنة العمارة التقليدية بغدامس مع نظيراتها بالمدن التقليدية الأخرى

انتشر البناء بالطوب اللبن في شبه الجزيرة العربية[43]، وكثير من المدن التقليدية في اليمن[44]، ومصر[45]، وشرق ووسط وغرب[46] وشمال أفريقية[47]، فضلاً عن مساكن الطبقة الفقيرة ببلاد الشام[48].

ويجب الإشارة هنا إلى أن المادة الخام للبناء لا تعنى بالضرورة أن البناء بالكامل من هذه المادة؛ ولكن المقصود فى أغلب الحالات أنها تمثل المادة الرئيسية فى البناء، ويكون غالباً هناك استخدام ثانوى لمواد البناء الأخرى. فنجد مثلاً البناء يكون بالحجر، ولكن يستخدم فى الأجزاء العلوية من البناء مثلاً الطوب اللبن (كما فى مساكن دمشق وقسنطينة بالجزائر[49]) أو مزيج بين الطوب اللبن والخشب. وفى المقابل نجد البناء بالكامل من الطوب اللبن مع استخدام الأحجار فقط فى الأساسات والأجزاء السفلية من الجدران كما هو الحال فى مساكن غدامس. وقد يستخدم الحجر والآجر معاً (كما فى صنعاء[50] باليمن).

ثمة أوجه شبه بين مساكن مدينة غدامس –والمدينة التقليدية بصفة عامة– والمساكن التقليدية بمناطق أخرى متباينة من العالم الإسلامى. وفى نفس الوقت تتمايز المساكن الغدامسية عن غيرها من

---

[43] - Aleid , 36-41 ; Alajmi , 162.

[44] - مدن زبيد التاريخية، ومناطق الحسينية وابن الفقيه، انظر: عبده، ***أصول النمط البرجى***، 9-10، 20.

[45] - تمثل مدينة القصر (بالواحات الداخلة) ومدينة سيوة بصحراء مصر الغربية أهم وأروع نماذج العمارة التقليدية بصفة عامة، والسكنية منها على وجه الخصوص، للاستزادة انظر: النحاس، ***عمارة الصحراء***؛ محمد ، ***تأصيل القيم المعمارية الاسلامية فى عمارة الصحراء بمصر***، تناول بالدراسة العمارة السكنية فى مدينة القصر بالواحات وخصائصها وذلك فى ضوء دراسة ثلاثة نماذج ؛ شهاب، ***أنماط العمارة التقليدية***، 307 وما بعدها.

[46] - فى كل من غانا ومالى والسودان والنيجر وتشاد، انظر: "African architecture" ، وعن العمارة السكنية التقليدية فى الهاوسا (نيجيريا) انظر: Danjuma, ***House Form In The Nigerian Savanna***, 139-148.

[47] - Solieman, ***M'zab Community,*** 74-114 ; 265-261 عثمان، ***دراسات فى العمارة التقليدية***،

[48] - حلبوني - دغمان، "استخدام مادة الطين في عمارة المسكن ..."، 16- 17.

[49] - دحدوح، ***مدينة قسنطينة خلال العهد العثمانى***، 657.

[50] - عبده، ***أصول النمط البرجى***، 12.

المساكن التقليدية ببعض السمات الخاصة، وللوقوف على أوجه الشبه والاختلاف سنعرضها فى ضوء مقارنتها بنماذج آخرى للعمارة التقليدية.

تشترك واحة غدامس التقليدية ومساكنها مع غيرها من المدن التقليدية[51] فى سمات عامة كثيرة فى مقدمتها أنها تمثل عمارة بيئية مبنية بمواد محلية قليلة التكلفة تتمثل فى الطوب اللبن (الطين) ومشتقات النخيل بصورة رئيسية. فيمثل الطوب اللبن أفضل[52] مواد البناء تحقيقاً العزل الحراري للمبني؛ حيث لا يتجاوز المدى الحرارى اليومي في المسكن المبنى بالطوب اللبن درجتين حراريتين[53]، بينما يبلغ في مسكن مبني من الأسمنت 22 درجة حرارية. كما يمثل الخشب كذلك عازل[54] جيد للحرارة، وخاصة عند استخدامه في الأسقف، حيث يستخدم بالفعل في المسكن التقليدي لتوافر أخشاب النخيل.

تمثل مدن الواحات المصرية – كما سبق ذكره – وعلى رأسها مدينتى القصر وسيوة أكثر نماذج العمارة التقليدية تشابهاً مع واحة غدامس ومساكنها. وهذا يعكس تشابه واضح فى جملة المعطيات التى أدت إلى ذلك ولعل أهمها الظروف البيئية والمناخية المتشابهة. ويتشابه كذلك تخطيط المدينة وبنيتها الاجتماعية؛ حيث تشترك غدامس ومدينة القصر فى أن كليهما مقسم لأحياء أو مناطق، كل منها يسكنه عائلة واحدة ويجمع بينهم كلهم صلة قرابة. فبينما تنقسم غدامس لستة أحياء يسكنها ستة عائلات كما سبق ذكره أعلى، فنجد مدينة القصر[55] تنقسم لأربعة أحياء تسكنها أربع عائلات هم القرشية، وخلف الله، والشهابية، والدينارية، وتربطهم جميعا صلات قرابة. ويطلق شارع على الحى الذى تسكنه عائلة واحدة فى غدامس، بينما يطلق عليه حصة فى القصر[56].

ومن ضمن نقاط التشابه بين تخطيط غدامس وبين تخطيط كثير من المدن التقليدية الأخرى وشبكة شوارعها وبعض فراغاتها مثل المجالس (أماكن تجمع الرجال) حيث يمثل ذلك دوراً وظيفياً مكملاً للمسكن التقليدي بهذه المدن مثل مدينتى سيوة والقصر بالواحات بمصر.

من أوجه التشابه أيضاً بعض تفاصيل تخطيط المسكن وبعض أجزاءه مثل موقع المرحاض، وطريقة صرف الفضلات فى كل من مساكن واحتى غدامس وسيوة[57]. فيوجد المرحاض فى مستوى معلق بين الطابق الأرضى والأول. ويوظف الفراغ أسفله كخزان للفضلات، والتى يتم تصريفها عبر باب يغلق

[51] - للمزيد عن ملامح وسمات عمارة الدور التقليدية راجع: عثمان (محمد عبدالستار)، ***دراسات فى العمارة التقليدية***، الدور بالجزيرة العربية (سدوس، 115-174)، الإمارات العربية 180- 181 ؛ عن عمارة الدور التقليدية فى دولة الكويت انظر: العازمي، ***المساكن فى البيئة الصحراوية***، 30.

[52] - وزيري، ***العمارة الإسلامية والبيئة***، 105.

[53] - بهنسي، ***الشام لمحات آثارية وفنية***، 100.

[54] - وزيري، ***العمارة الإسلامية والبيئة***، 108.

[55] - محمد، ***تأصيل القيم المعمارية***، 24.

[56] - محمد، ***تأصيل القيم المعمارية***، 24.

[57] - شهاب، ***أنماط العمارة التقليدية***، 342-343.

على هذا الخزان عند الضرورة، وتستخدم المخلفات كسماد للأراضى الزراعية. ولا يخلو منْزل فى كل من المدينتين من وجود المرحاض.

أوجه التمايز

تنفرد مساكن غدامس ببعض السمات فى التخطيط والوظيفة لبعض الفراغات عن غيرها من المساكن التقليدية ولعل أهمها: استخدام السطح، موقع المطبخ، والزخارف والفرش من الداخل.

تمثل **أسطح المساكن الغدامسية** (لوحة رقم 31) – فضلاً عن الاستخدام المشترك للنوم أثناء الصيف– مكانًا دائمًا وقاصرًا على نساء المسكن حيث يستخدم كمجلس للنساء يجتمعن فيه مع جاراتهن وتكون حركتهن وانتقالهن عبر الأسطح مباشرة، ويتم فيها فضلاً عن الزيارات بين النساء، عمليات البيع والشراء.

وفكرة استخدام السطح كبديل[58] للفناء فى الدور ذات التصميم الرأسي عرفت كذلك فى مساكن جدة بالمملكة العربية السعودية، حيث كان يستغل للسمر والسهر. ومع ذلك تظل خصوصية استخدام أسطح منازل غدامس كعالم نسائى خاص تتم الحركة خلاله عبر أسطح المنازل سمة معمارية، ووظيفية، واجتماعية تخص المنازل الغدامسية.

موقع المطبخ. واستخدام السطح الدائم من قبل النسوة كما ذكر أعلاه، جنباً إلى جنب مع تخوف سكان غدامس من مخاطر حرق الأخشاب كمصدر أساسى للوقود بالمطبخ حيث إعداد الطعام أثرا بصورة مباشرة على اختيار موقع المطبخ على السطح.

الزخارف والفرش. تشترك الزخارف والفرش مع نظائرها فى المساكن التقليدية الأخرى فى البساطة والصناعة المحلية من مواد خام بيئية مثل الفخار ومشتقات النخيل فضلاً عن بعض المواد المستوردة. تتشابه زخارف المنزل الغدامسي مع زخارف العمارة الصحراوية بالجزائر مثل مدن كانو وتيمبكتو[59].

[58] - عثمان، ***دراسات فى العمارة التقليدية***، **178.**

[59] - Aymo, "La maison ghadamsie", 168.

المراجع

- أبو عبد الله (محمد بن عبد الملك بن مالك الطائي الجياني) (ت 672هـ)، ***الألفاظ المختلفة في المعاني المؤتلفة***، تحقيق د. محمد حسن عواد، الطبعة الأولي، دار الجيل، (بيروت، 1990م).
- البابور (منصور محمد) وآخرون، ***غدامس التحضر والقاعدة الاقتصادية***، جامعة قاريونس، بنغازي، 1993م.
- بهنسي (عفيف)، ***الشام لمحات آثارية وفنية***، وزارة الإعلام العراقية، (بغداد،1980م).
- تشانجي (عبد الرحمن)، ***الصراع التركي الفرنسي في الصحراء الكبرى***، ترجمة: علي عزاز، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، 1993م.
- الثني (نور الدين)، ***المؤثرات الدينية في تشكيل النسيج المعماري لمدينة غدامس التاريخية***، (رسالة ماجستير - جامعة أم درمان الإسلامية- السودان)، 2007م
- **الجبوري (كامل سلمان)**، ***موسوعة الخط العربي: الخطوط العربية الأخرى***، (بيروت، دار ومكتبة الهلال للطباعة والنشر، 1420هـ/1999).
- حلبوني (غسان) و دغمان (موفق)، "استخدام مادة الطين في عمارة المسكن العربي ماضياً وحاضراً ومستقبلاً علي مثال إقليم دمشق"، ***مجلة باسل الأسد للعلوم الهندسية***، دمشق، عدد خاص عن تطور المسكن العربي عبر العصور، العدد 8، 1997م..
- الخازمى (محمد مصطفى محمد)، ***المآذن الليبية فى العصر العثمانى من سنة 1551-1911م***، رسالة ماجستير، جامعة المرقب، 2008،
- خيرى (عزت على)، "غدامس جوهرة الصحراء"، ***آثار العرب*** العدد الخامس (سبتمبر 1992م)، طرابلس- ليبيا، مصلحة الآثار.
- دحدوح (عبدالقادر)، ***مدينة قسنطينة خلال العهد العثمانى دراسة عمرانية أثرية***، (رسالة دكتوراه، معهد الآثار – جامعة بوزريعة)، 2010م.
- رولفس (غيرهارد)، ***رحلة عبر أفريقيا***، ترجمة: عماد الدين غانم، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، 1996م.
- الزاوي (الطاهر أحمد)، ***معجم البلدان الليبية***، مكتبة النور، طرابلس، 1968م.
- شرف (عبد العزيز طريح)، ***جغرافيا ليبيا***، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية، الطبعة الثالثة، 1996م.
- شهاب (سعد عبد الكريم)، ***أنماط العمارة التقليدية الباقية في صحراء مصر الغربية***، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، (الإسكندرية، 2009م)،
- ضوء (عبد الله خليفة)، ***غدامس واقع وتواصل، الحياة الحضرية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، دراسة الجغرافيا التاريخية***، (رسالة ماجستير كلية الآداب جامعة السابع من أبريل، الزاوية، ليبيا) 2004م.
- ضوى (على)، *"القصف الجوي الأمريكي على غدامس أثناء الحرب العالمية الثانية وموقف القانون الدولي"*، **مجلة الانصاف الحولية الليبية لدراسة أضرار الاستعمار والحروب**، السنة الاولى، العدد الأول (طرابلس 1988م).
- طنطاوي (حسام عويس)، "التحف الفنية الإسلامية المشكلة على هيئة الكف في ضوء نماذج مختارة (دراسة في المغزي الوظيفي والمذهبي)"، في: ***المؤتمر الدولي الأول لكلية الآثار – جامعة الفيوم : الاتجاهات الحديثة فى علوم الآثار"***، في الفترة من 7-9 أبريل 2014، 70-96.
- العازمي (خالد حريميس فلاح)، ***المساكن فى البيئة الصحراوية دراسة تحليلية لمدى التوافق البيئى والعمرانى مع التطبيق على منطقتى القرين والأندلس***، ط1، (الكويت، 2000م).
- عبده (معين عبدالملك سعيد)، ***أصول النمط البرجى فى العمران اليمنى التقليدى دراسة تحليلية مقارنة للمسكن والمسار فى مدينتى صنعاء وشبام حضرموت***، (رسالة ماجستير، كلية الهندسة- جامعة القاهرة)، 2002.
- عثمان (محمد عبدالستار)، ***دراسات فى العمارة التقليدية فى المنطقة العربية***، (د.ن.، 2012م).
- عز الدين (أحمد محمد)، ***تاريخ غدامس القديم والحديث***، مطابع مدكور، القاهرة، 1975م.
- كورو (فرانشيسكو)، ***ليبيا أثناء العهد العثماني الثاني***، تعريب وتقديم: خليفة محمد التليسي الطبعة الثانية، طرابلس، 1984م.
- محمد (رفعت موسى)، ***العمائر السكنية الباقية بمدينة القاهرة في العصر العثماني "دراسة أثرية وثائقية "***، (رسالة دكتوراه، كلية الآثار - جامعة القاهرة)، 1995م.

- محمد (على لبيب)، ***تأصيل القيم المعمارية الاسلامية فى عمارة الصحراء بمصر***، (رسالة ماجستير، كلية الهندسة – جامعة عين شمس)، 1987.
- مروان (محمد عمر)، "الحياة الاجتماعية بغدامس خلال القرن التاسع عشر "، ***أعمال الندرة العلمية التاريخية حول تاريخ غدامس من خلال كتابات الرحالة والمؤرخين***، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية الجماهيرية، 2003م.
- المناوي (محمد عبد الرؤوف) (ولد 952هـ، ت 1031هـ)، ***التوقيف على مهمات التعاريف***، تحقيق د. محمد رضوان الداية، الطبعة الأولى، دار الفكر، (دمشق، 1410هـ/1989م).
- الموبر (جمال أحمد عبد الله)، ***مدينة غدامس الليبية في العصر الإسلامي دراسة عمرانية أثرية***، (رسالة دكتوراه، قسم الآثار الإسلامية، كلية الآثار- جامعة القاهرة) 2011م.
- النحاس (أسامة)، ***عمارة الصحراء***، دار الكتب المصرية، (القاهرة، 1987م)
- النويصر (محمد بن عبدالله)، ***خصائص التراث العمرانى فى المملكة العربية السعودية (منطقة نجد)***، دارة الملك عبد العزيز،1999 م.
- الهرامة (عبد الحميد)، "غدامس إحدى حلقات الوصل في العلاقات الإسلامية الأفريقية"، ***مجلة رسالة الجهاد***، العدد 99 (طرابلس، 1991م).
- وزيري (يحيي)، ***العمارة الإسلامية والبيئة (الروافد التي شكلت التعمير الإسلامي)*** سلسلة عالم المعرفة، (الكويت، 2004م).
- يوشع (بشير قاسم)، ***غدامس ملامح وصور***، دار لبنان، (بيروت، 1973م).

- "African architecture", ***Incyclopedia Britinaica***, published online: [http://www.britannica.com/EBchecked/topic/756980/African-architecture]
- Alajmi (Mohammed), ***History of Architecture in Kuwait:The Evolution of Kuwaiti Traditional Architecture Prior to the Discovery of Oil***, Ph.D**.** thesis, University of Nebraska, 2009.
- Aleid (Salem E. A.), ***The role of traditional material culture in ontemporary Saudi Arabia: The traditional courtyard house as exemplar***, Ph.D. thesis, The Ohio State University, 1994.
- Aymo (J.), "La maison ghadamsie", ***Travaux de I'Institut de Recherches Sahariennes de l'Universite d'Alger*** 17 (1958).
- Danjuma (Benjamin Ancyu), ***House Form In The Nigerian Savanna:An Analysis Of Housing And City Structure In The Hausa Tradition***, Master Thesis, School of Architecture, Mcgill University, Canada, 1988.
- Daza (Mahmoud Hassan), ***Understanding The Traditional Built Environment: Crisis, Change, And The Issue Of Human Needs In The Context Of Habitations And Settlements In Libya***, Ph.D. thesis, University of Pennsylvania, 1982.
- Despois (J.), "Ghadames", ***EI***^{2} (***Encyclopedia of Islam***), new ed., vol. 2, Leiden, 1965.
- Solieman (Khalifa Ali), ***M'zab Community, Algeria, North Africa: Its Planning And Architectural Aspects—Past, Present, And Future***, Master Thesis, The University of Arizona, 198S.